

الخطاب السياسي في روايات عبد الرحمن منيف شرق المتوسط - أنموذجاً -

- مقارنة تداولية -

أ. رقية جرموني

المركز الجامعي معسكر

يعد الخطاب سلسلة من الملفوظات التي يمكن تحليلها وذلك عن طريق تحديد أنظمتها وقنواتها التواصلية وتختلف هذه القنوات حسب نمط الخطاب ومن هنا يوجد اختلاف كبير بين اللغة كنسق من العلامات والاستعمال الفردي لهذه اللغة (1) التي تجعل من العمل الأدبي نشاطاً إبداعياً نوعياً متميزاً عن غيره من الأشكال المعرفية الأخرى فقيمة العمل الأدبي تقوم أساساً على الوعي اليقظ بالوظيفة النوعية التي تؤديها اللغة لإنتاج دلالية ورموزه ومعانيه حيث أن الرواية عنت تشكل ظاهرة كتابة تفوض دراستها تحديد العناصر اللغوية والروائية بوصفها تمس بقوة مستوى الكتابة في النصوص المقروءة (2).

شرق المتوسط رواية سياسية والقراءة السردية تبحث عن الجليل والجميل والعلاقة بينهما معقدة فالسياسي في العادة لا يبحث عن الأشياء الجميلة بل يصف الواقع كما هو بسليباته وإيجابياته دون تدخل الكاتب لكن ومع ذلك كلما كان العمل وأي عمل أدبي بغض النظر عن خلفياته مستوفياً للشروط الفنية فإن ذلك يضمن له فعالية عالية وكفاءة أدبية مستمرة (3).

وقد اهتم بعض النقاد في قراءاتهم للأعمال الروائية بالتفريق بين القضية والخطاب حيث أن الأول "تألف من الأحداث والأشخاص في ترابطهم وضمهم للحدث" في حين أن الخطاب يتمثل في الطريقة التي بواسطتها ندرك القضية عبر الراوي الذي يرويها وانطلاقاً من هذا التحديد تم التمييز بين زمن القصة الذي يكون متعدد الأبعاد بما أن هناك

أحداثاً قد تدفع في نفس الوقت وبين زمن الخطاب الذي يكون خطباً بما انه يعرض لهذه الأحداث الواحد تلو الآخر(4) يستلزم البحث في الأعمال الروائية الوقوف عند الإسهامات النقدية التي خلفتها المدرسة الشكلانية والتي حاولت وضع نظرية لنشر الأدبي. واستفاد هؤلاء النقاد من اللسانيات وخاصة بعد الثورة الذي أحدثها العالم اللساني في العصر الحديث - فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure فالمتبع للمسار اللساني يجد أن الدرس اللغوي قد مر بمراحل مختلفة إلى أن وصلنا إلى لسانيات القرن العشرين.

فالنحو المقارن حينما اشتغل على مفهوم القرابة اللغوية بين اللغات" بمعناه التاريخي هو الذي أدخل اللسانيات في الطريق العلمي الصحيح إلى أنه اقتصر على الوصف التاريخي والصوتي لها لإعادة ربط العلاقة وإحكام القرابة حيث يقوم الباحث بجمع عينات لغوية من الأسرة الواحدة ويسجل التطورات المتتالية للكلمة الواحدة عبر مختلف العصور. ثم يحاول جاهداً بناء الشكل الافتراضي الأول على أسس منهجية.

أما آراء دسوسير اللسانية فقد قلبت الموازين وغيّرت الرؤى وتأثر به كل من درس اللسانيات وكان أثره واضحاً في الدرس اللغوي الحديث فهو يرى إلى اللغة على أنها ظاهرة جد معقدة فهي تتألف من حوادث مختلفة: صوتية ، نفسية ، اجتماعية ، تاريخية، جغرافية وحتى يستطيع السيطرة على هذا التعقيد وتفادياً لأي غموض فقد حاول أن يستخرج من الأبحاث العلمية التي قام بها مقارنة القرن التاسع عشر ميلادي والتي برع فيها النحات الجدد قانونين عامة ، ومن باب الإنصاف فإن آراءه اللسانية كثيراً ما تلتقي بتلك التي كانت موجودة في العالم الغربي ومنذ العهد اليوناني لكنه أظفأ عليها طابع

الوضوح وأخرجها في شكل ثنائي، كما وضعها في نظام منسق لا تقل دقته عن دقة أسلوبه التركيبي الذي يعود أساسا إلى خاصية تعليمه الشفوي.

وبعض لساني العصر الحديث اهتموا بلسانيات الجملة حيث وقفوا عند حدودها ومنهم مؤسسي المدرسة التوزيعية الذين اقتصر عملهم على الملاحظة الشكلية للحدث اللغوي لأن التحليل اللغوي لا ينبغي أن يكون وصفاً ملّ قاله المتكلمون ، وإنما شرح وتعليل للمعطيات الذهنية التي من خلالها يمكن للإنسان أن يتكلم بجمل جديدة ، واستطاعت النظرية التحولية أن تتخلى عن مفاهيم علم النفس السلوكي إلى منهج عقلي همه الوصول إلى القدرة الكامنة وراء الفعل اللساني والسعي لتعليله وتفسيره بدلا من وصفه وصفا شكليا وقد أصبحت الجملة المحور الأساسي لهذه النظرية وقد حاولت تجاوز الجملة إلى الخطاب مع الفقرة أولا ثم تسلسل الفقرات ثانيا.

تجاوزت فيما بعد اللسانيات حدود الجملة إلى الخطاب بوصفه ملفوضا يستدعي لتحقيقه عدة عناصر متأكفة ومنسجمة . ولم يعد الخطاب الوسيلة للتواصل والإبلاغ وإنما أيضا للتفاوض وذلك بفك الشفرات والرموز كما أدرجت إليه عناصر لسانية تشمل ثلاثة جوانب هي: "زمن السرد ومضاهره أو طريقة السارد في إدراك الحكاية، وطرق السرد التي تتعلق بنمط الخطاب المستعمل من قبل الراوي لتعبر يفينا بالحكاية " (5)، ونظائقا من هذه العناصر التي حددت ماهية تحليل الخطاب ظهر مصطلح آخر يسمى بتداولية Pragmatique وستعمل لأول مرة من قبل العالم اللساني شارل موريس Charles Morris وعرفها بيرس Pierce بمصطلح مطول حيث " تخول لنا بناء نظرية للكفاءة التواصلية التي تفسر الطرق التي يمارسها المرسلون والمتلقون لغرض الفهم والإفهام وفي أفعال الكلام " (6)، ونظرية أفعال الكلام ساهمت مساهمة فعالة في انتشار التحليل التداولي وكانت معروفة عند فلاسفة أكسفورد وقد تحدد مفهومها من مجرد

"تبادل المعلومات إلى الفهم الملفوظ وتحديد لمحتواه الإخباري وتحديد لتوجهه التداولي" (7)، ولهذا ما أكدت عليه C.K.Orecchioni، أما فان ذايك فيرى أن النشاطات المشتركة بين المخاطب والمخاطب تستوفي خواص الزمان والمكان من الوجهة المنطقية والفيزيائية والمعرفية.

أما مصطلح التداولية عند العرب فقد استعمل بمعنى الممارسة والتفاعل مع الآخرين وذلك ما نجده عند طه عبد الرحمن "حيث يرى أن امتلاك المخاطب للغة وتأديته لها يسمح بإقامة علاقات مع الغير ولكن دون الوقوف عند وظيفة الإبلاغ" (8). قبل الشروع في تحليل "رواية شرق المتوسط" لعبد الرحمن منيف، يجدر بنا أن نسجل الملاحظات التالية:

- الدراسة التداولية لخطاب السياسي دراسة لدواخل و كوامن النص وتركز على التلفظ
- يصبح النص الإبداعي منفصلا عن صاحبه بمجرد ما أن يضع هذا الأخير نقطة النهاية ، ومن هنا يكون للقارئ الحق في أن يتعامل مع النص على أنه إبداع لغوي بغض النظر عن صاحبه والضرر وف التي كتب فيها .
- شرق المتوسط أعاد فيها المؤلف إنتاج واقع عربي موجه في الضفة الجنوبية من شرق البحر الأبيض المتوسط، وهي تكاد تحكي بصوت واحد .
- " إن الإنسان في شرق المتوسط هو أرخص الأشياء، أعقاب السجائر، فلو نظرنا لحظة واحدة في قعر سرداب من آلاف السرداب المنشورة على شاطئ المتوسط الشرقي وحتى الصحراء البعيدة، لرأينا بقايا البشر، وانتظارا يائسا، و ماذا أيضا : وجوه الجلادين الممتلئة عافية وثقة بنفس " (9).

نجد أن اللغة المستعملة هنا تحمل هم الإنسان الشرقي وفي الوقت نفسه تعرف المتلقي عما يجري في هذه الجهة" فمن العار بعد هذا الإذلال والعذاب أن أقدم لهم لحمي

عشاء شهيا يتمتعون به، ثم إنني أدافع عن قضية عادلة وبسيطة: هي حق الآخرين في الحياة والحرية، وهم يدافعون عن امتيازاتهم، وعن السلاطين والشيوخ الفاسدين، وكذلك يجب أن يكون أقوى منهم، لأن قصتي هي المشروعة ليس ما تجاوب يا بن الكلب؟" (10).

نجد في هذا المقطع السردى محاولة التأثير على مستوى الفعل التلفظي ولإنجازي، وهذا ما يتجلى واضحا في أفعال الكلام وبذلك يظهر النص الأدبي على أنه خطاب يؤدي رسالة معينة، والتداولية هي استعمال العلامات اللسانية والعلامات غير اللسانية باستعانة بالمعطيات السياقية والخارج سياقية وتحدد فيما يلي:

البطل (رجب إسماعيل) - المخاطب - المستوى التلفظي - القول.

البطل (رجب إسماعيل) - المخاطب - المستوى الإنجازي - الفعل (المواجهة)

البطل (رجب إسماعيل) - المخاطب - المستوى التأثري (قصتي هي المشروعة لأنني أدافع عن الحق والحرية).

ويحدد الفعل الكلامي الزمان والكلام الواقع المعاش ونستشف ذلك من خلال ذاتية المتلفظ وذلك لأنه يتحدث عن قصديه إزاء الأشخاص وإزاء العالم الذي يعيش فيه وذلك ما نستشفه في هذا المقطع السردى "أشيلوس، أنتي من بلدة.... أليس كذلك؟ قلت لها أداعبها كيف عرفت؟" (11).

ولعل في ظاهرتي المسكوت عنه في الفعل الكلامي داخل الروايات ما يبرز حضور السامع المتخيل في ذهن الراوي وتأثيره في الخطاب، كما يمثل مجالا بارزا من مجالات تدخل الذات في الملفوظ إذ تقوم بانتقاء ما تصرح به وما تدمره.

ويستعمل الكاتب في الرواية السياسية الضمير أنا وذلك لإسناد الأوضاع إلى ذاته حتى تبدو أكثر وضوحا وواقعية.

"قبضوا على رامي رجب وضربوها وأبقوها في السجن حتى اليوم التالي، وعندما عادت إلى البيت أصابتها الحمى وماتت" (12).

نفهم مدى تعدد أشكال العنف في سجون منيف وكثرة أساليب القهر والاستلاب والآلام الجسدي والنفسي، وبرز السجن مكانا يفضح عيب السلطة الجوهري ويكشف شهوة رجالها للعنف والإرهاب والقتل، كما حول الكاتب إلى جانب ذلك أن يرصد أسباب هذه لظواهرها ويعربها على المستوي الاجتماعي - النفسي.

ونجد من قصديه التواصل البحث عن مكونات الخطاب التي تتضح بالقوانين التي تميزه وتحركه وهي قوانين: ضمنية وصریحة.

فالضمنية تجعل القارئ يشغل فكره ويسأل بصمت ويتأمل هذا العالم الذي يعيش فيه، السريع المتغير، يترقبوا بخوف وقلق الفدى المجهول لأن في ذلك الزمن كل شيء مطروح وممكن "سيطرت عليا بجموح فكرة انه يجب أن أقول لناس ما يجري في السرايب، في الظلمة وراء جدران ذلك البناء الأصفر، الذي يربض فوق قلوب البشر مثل حيوان خرفي ... الكلمة آخر الأسلحة ... لن تكون أقواها لكنها سلاح الذين تلوث دماؤهم، ماتت أمهاتهم، سلاح الأطفال الذين يردون أن يفعلوا شيء" (13).

ومن مزايا الخطاب السياسي أن يحقق التفاعل وذلك بلجوه إلى التلميح، حيث يلمح الكاتب في هذا البرنامج السردى إلى قوة الكلمة وإيمانه بها ويضرورة أن تكذب لتأثر.

ومن العناصر اللسانية التي استعملتها التداولية ظاهرة الافتراض المسبق التي تتناسق والقيم الدلالية للجمل وذلك ما سيتضح في هذا القول الافتراضي "هذه لا هي سر العذاب كله، هذه الكلمة الصغيرة التي غيرة الكون والبشر والحياة وهي التي غيرتني ومثلما جعلت لإنسان إنسانا حين يعرف كيف يستعملها جعلتني أجزؤ على استعمالها" (14).

فذلك يجعل المستمع يستتج أن كلمة لا كانت رفضا واضحا لتوقيع معاهدة الاستسلام والانزعام ، فالتداولية لها عدة وظائف تؤديها داخل الخطاب فهي تهتم به خطابا كاملا وليس جملة وتحيل إليه وتعرفه وتعبّر عنه وتوجهه في آن واحد وهي بذلك تشكل محور نظرية التواصل.

ونسجل بأن السجن السياسي مظهر من مظاهر غياب الحريات الإنسانية والديمقراطية في المجتمع ومن ثم فهو جزئ من القهر، وشكل من أشكال علاقة السلطة بالإنسان العربي، تلك العلاقة القهرية التي تسعى من خلالها تطبيق ظاهرة التسلط والرضوخ، وهذا ما تبديه العلاقة القائمة بين العناصر الافتراضية المسبقة مسجلة في اللغة.